مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية) المجلد : ٣٤ ، العدد: ١ ، السنة : ٢٠١٠ ، ص٦١-٩١

الزوال وقلق الإنسان
رحلة وكشف قراءة في ديوان الزوال لسامي مهدي

م. د. علي عبد رمضان م. م. إيناس عبد الرحيم رمضان
جامعة البصرة – كلية التربية – قسم اللغة العربية.

الخلاصة :

يمكن القول أن ديوان الزوال مثل تجربة شعرية واحدة ، بدا من خلالها الشاعر متتبعا لفكرة الزوال وتمظهراتها في الإنسان وما حوله من موجودات هذه الحياة . وقد صاحب ذلك مواقف شعورية ونفسية وفكرية أيضا ألقت بظلالها على ذلك الإنسان وأسهمت في طبيعة تعامله مع الزوال ووعيه به ، وبحثه عن خلاصه منه . وقد تشكلت هذه التجربة من خلال مراحل ثلاث :

ـ المرحلة الأولى : وفيها تتبعّ لمظاهر الزوال الذي يحكم قبضته على الوجود كله ، وقد مثلتها (قصائد الزوال ، وقصائد المدن) وفي تلك القصائد نجد الشاعر ينقل معاناته التي فجعت نفسه لتصدع علاقات الأشياء فيما بينها وتفتت علاقته كإنسان بما حوله ، فبدا إنسان الزوال في هذه القصائد ضعيفا مخذولا لا يجد له إزاء الزوال المحدق به غير خوفه وقلقه وضياع أحلامه ورحيل أحبته (ولذلك اضطرب توازنه النفسي واستولى عليه شعور بالتعب وعدم الاستقرار والغربةواللاطمأنينة).[٢١] وهذا ما دفعه لاسترجاع الزمن الماضي والوقوف على ما كان ينعم به السلف الإنساني ، فهو نكوص شعوري أملته عليه حالته النفسية التي هو عليها في زمن يشهد الإنسان فيه نفيا وفقدا وجوديا وروحيا . فكانت قصائد (من ألواح سومر) شاهدا على ذلك .

ـ المرحلة الثانية : مرحلة الكشف ، هذه المرحلة تأتي في نهاية قصائد الأسلاف إذ شهد إنسان الزوال فيها تيقنه من فشل مجابهة هذا المارد المخيف (الزوال) ، وفشل حلمه بالخلاص منه . وأدرك أن خطأه كان في الغفلة عن التفكر في خلاصه ، لا في بحثه عن الخلاص . وهنا بلغ الإنسان حالة من التحول المعرفي وهي إقراره بالفناء ووعيه لحقيقة عالم الإنسان الذي هو رهن للفناء والزوال ، فوقف ليصحح نظره فيفصل بين عالم الإنسان المادي المحدود وبين العالم الآخر المطلق الأبدي . من هنا بدأ بحثه عن سبل أخرى في تعامله مع الزوال ليتحول فيها قلقه السلبي إلى قلق دافع ومحفز لاغتنام كل فرصة يخلد الإنسان فيها نفسه ويترك أثره . وبذا يواجه الزوال بأفعاله هو لا باتكائه على المنى الزائفة .

ـ المرحلة الثالثة : وهي مرحلة صحو الإنسان التي تبين فيها مسارات صحيحة للوقوف أمام الزوال ، يستثمر فيها قلقه وخوفه ، فيحقق ما يريد بأفعاله ويبني حياته من جديد كما يشاء ويشتهي . وقد مثلت

الزوال وقلق الإنسان

رحلة وكشف قراءة في ديوان الزوال لسامي مهدي

هذه المرحلة قصائد (الصحو ، و سيحان ، و رأيت ما رأيت) إذ جاءت خاتمة لتجربة الشاعر فشهدت مرحلة وعي الإنسان في مواجهة مصيره ، وفي بناء حياته . إن مرحلة الصحو هذه كشفت عن سبل يتخذ فيها الفعل الإنساني المجابه للزوال حيزا كبيرا ومساحة واسعة طغت على أثر الزوال نفسه . وهذا ما فقدناه في (قصائد الزوال وقصائد المدن) .

وهكذا تتضافر قصائد الديوان كلها في تمثل هذه التجربة الشعرية التي تناولت فكرة الزوال و الإنسان ، والتي كانت غنية بالمواقف النفسية والشعورية والفكرية ؛ إذ صورت لنا قلق الإنسان وفعله إزاء الزوال في شعرية عالية .

توطئـــــة

لا يمكن بحال من الأحوال أن تنمحي علاقة الإنسان بمحيطه ، أو لا يظهر لهذه العلاقة أي تأثير في سلوكه ومواقفه إنسانا يجد نفسه منتمياً إلى ذلك المحيط . ولم يتوقف هذا الانتماء وهذه العلاقة بين الإنسان وبين محيطه على الزمان و المكان اللذين يشهدان حياته منذ ولادته حتى مماته ، بل العكس من ذلك فعلاقة الإنسان وانتمائه لابد أن يتجاوزا ذلك إلى اللحظة التي بدأ فيها الإنسان يعي وجوده ويعي علاقته بالكون من حوله وينظر في مصيره ومصير الأشياء من حوله أيضاً، منذ أن بدأت إنسانيته بنسج خيوطها عبر العصور والأجيال رابطة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وإذا وعى الإنسان ذلك وحرص على تمثله فإن أشد ما يخشاه هو أن يغتال إنسانيته ووجوده أي غائل . فكيف إذا كان ذاك هو الموت والزوال ، أو التبدل والتحول الذي نخضع له دون إرادتنا ودون رضانا في أغلب الأحيان ؟.

طبيعي أن يبحث الإنسان إزاء ذلك عن خلاص ؛ وطبيعي أن يكون وراء بحثه هذا قلق وخوف قد يكبر أو يتسع على قدر الأثر الذي يتركه الزوال في نفس الإنسان الذي يعي انتماءه لما حوله والذي يعي أيضاً انتماءه إلى ماضيه وحاضره ومستقبله.

فأين يكون المرء من ذلك كله؟ وكيف يكون ؟ وأي السبل يختار لبلوغ هدفه ؟.

هذا موضوع قراءتنا في هذا البحث الذي تتبع رؤى سامي مهدي في ديوانه الزوال . إنها قراءة نرجو لها أن تجد نفسها بين قراءات هذا النص غير المنتهية.

المدخل :

القلق في اللغة يتضمن معنى الاضطراب في المشاعر وانتفاء سكينة النفس أو طمأنينتها. ولكن كتب اللغة أوجزت ذلك بشدة فحصرته بالانزعاج[1] ، وإن زاد بعضها فذكر الباعث على القلق وهو الهم[2] . وغير خفي أن هناك ثمة مناسبة بين أصوات لفظة (قلق)وبين مدلولها اللغوي فتلك الأصوات توحي بدلالة الحركة الداخلية المضطربة.

أما مفهوم القلق من وجهة النظر النفسية فهو (حالة من التحسس الذاتي يدركها المرء على شكل شعور من الضيق وعدم الارتياح مع توقع وشيك لحدوث الضرر أو السوء وهي حالة أشبه ما تكون في طبيعتها الشعورية وفي انفعالات الجسم المصاحبة لها بحالة الخوف ....) [٣] . وقد عد بعضهم القلق مرضاً نفسياً نواته الخوف الذي هو سبب أصيل لحدوثه وصيرورته مرضاً [٤] .

وشعور القلق هو اقرب إلى كونه تجربة إنسانية شاملة ، وتوافره في النفس لم يكن عفواً بقدر ما يكون ضرورة تكامل نفسي تخدم أغراضاً مهمة في حياة الإنسان وعلاقته بمحيطه . ومن الصعوبة أن نتصور العالم الإنساني وهو خال من أي أثر للقلق ، ولو كان ذلك لعاش الإنسان ليومه لا يتقيد بمسؤولية أو شيء من طموح أو هدف [٥] . ومن أهم مكونات القلق الشعور بالمسؤولية والشعور بالإحباط والشعور بالنقص والعجز والشعور بعدم التكيف مع الواقع.

وإذا عرفنا أن القلق في حدوده الطبيعية هو ظاهرة تخدم أغراضاً مهمة في حياة الإنسان وهو موقف أنساني يضطر إليه الفرد عندما يشعر بقوة ما تهدد وجوده بالانتقاص والتدمير فإن الإنسان (الأديب خاصة) عندما يصور الظواهر النفسية في نتاجه الأدبي لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون بمنأى عن تفاعلات الحياة ؛ ومن ثم تكون تلك التفاعلات محاكة ضمن نسيج قلقه وشعوره الناجم عنه. (فكل أثر أدبي إنما هو مصور جميل لحالة نفسية لا بل هو مصدر شخصي تتكشف فيه دواخل الشاعر أو الأديب).[٦]

ومن المعلوم أن الشعر مرآة نطالع فيها ما تناوله الشاعر من أفكار وتجارب عاشها أو انشد إليها وتفاعل معها ، فالشعر هو تعبير عن رؤية الشاعر للعالم بكل ما فيه . ومن خلال إدراكنا لأبعاد رؤية الشاعر وتجربته الشعرية نقف على جوانبه النفسية وما تنطوي عليه من مواقف تجاه الكون والحياة والمجتمع، ومن بينها قلقه الذي يعانيه جراء وعيه بمشاكل العصر والإنسان والوجود. (وحين يصير الشعر ظاهرة في الشاعر معبرة عن القلق مرضاً وعن الشاعر مريضاً ، يكون هذا الشعر هو شعر الخوف وهو نتاج الخائف الذي لم يستطع أن ينتصر على خوفه فظل وتزامن واشتد فصار قلقاً)[٧].

إن الذي يطلع على ديوان الزوال يجد أن سامي مهدي كرس تجربة نفسية عاشها بكل أبعادها ومازج بينها وبين رؤاه التي استمدها من واقع تأصلت فيه جذوره بماضيه وحاضره ومستقبله . وقد ولدت تلك التجربة في دواخله شعورا بالقلق سببه الخوف من المصير المحتوم الذي مانفك يلف أشياء الوجود كلها من حول الشاعر ، ويبقى ــ هذا المصير ــ ديدنه من بدء الزمان حتى منتهاه.

لسنا بصدد تقديم خلاصة لرأينا في الديوان قبل الشروع بدراسة قصائده وتحليلها ، فما الأمر بهذا اليسر ، ولكن لنلْمح إلى أن ذلك ينشر ظلاله على طول تجربة الديوان.

إن عمق وعي الشاعر بالمصير الإنساني وعلاقته بالوجود من حوله كان وراء تجربة الشاعر هذه التي مثلها ديوان الزوال.

ويمكن القول هنا أن لفظة الزوال عنوانا للديوان تجسدت استهلالاً تحمل دلالات وإيحاءات فاضت بها تجربة الشاعر بعمقها النفسي والفكري ؛ فهذه اللفظة أدت دور الكلمة المصورة التي تشع منها كل الرؤى التي تدور داخل إطار هذا المعنى الكبير المقلق الذي ظل يلف الوجود من بدئه وما يزال حتى منتهاه، كما أوحت لنا لفظة الزوال بامتداد خيوطها من الماضي عبر الحاضر متجهة بإصـــرار نحـــو المستقبل فقد جاءت اللفظة متصدرة الديوان محملة بكل الدلالات العميقة التـــي يـــوحي بهـــا المعنـــى وتشعباته مركزة ومكثفة الزوال معنى وفعلاً.

إنها هنا مصورة لعملية الأمحاء والتلاشي التي تشهدها الموجودات في الحياة ، و(الإنسان) فـــي مقدمة قافلتها المسارعة نحو مصيرها المحتوم ولا نبتعد كثيراً إذا قلنا أن الزوال هنا حالـــة ضـــبابية مرعبة توحي بثقل ممتد ببطء يلف نفسية الشاعر التي لم يغب عنها هذا الثقل وأدركـــت بعمـــق أنهـــا عاجزة عن درئه أو الفرار منه ؛ مما يجعل لفظة الزوال عنواناً للديوان ذات علاقة وطيدة بالنصوص الشعرية التي تضمنها إذا عرفنا أن الاستهلال (... ليس عنصراً منفصلاً عن بنية العمل الفني كله كما يوهم موقعه في بدء الكلام ، كما أنه ليس حالاً سكونية يمكن عزلها والتعامل معها كما لو كان بنيـــة مغلقة على ذاتها وإنما هي السدى البنائي والتاريخي المتولد من العمل الفني كله ، الخاضـــع لمنطـــق العمل الكلي . وفي الوقت نفسه فهو عنصر له خصوصيته التعبيرية باعتباره بدء الكلام والبداية هـــي الفاعل الأول لعجلة النص كله).[٨]

__قصائـــد الزوال__

ينطلق الشاعر في بدء ديوانه من استنباط ذاتي يكشف لنا عن وقفة تأملية في الكـــون وأشـــيائه ــ دون أن يغفل نفسه ــ صادر عن وعي بحركة الوجود من حوله ، حركة ينتابها العماء ، آخذة في عدم استقرار أو ثبات آيلة إلى زوال يفقد فيها ما يحقق وجوده (المكان والزمان) فينفيهمـــا عـــن نفســـه فيقول:[٩]

لا مكان له

وهو رابٌ يطلّ على كلّ ما في الجهات

لا زمان لهُ

وهو في كلّ بارقةٍ ماثلٌ

يتوخّـــى طريقاً

وينْشئ جسراً إلى الله من كلماتْ

إشارة رقم (١) :لم يذكر الشاعر لهذه القصيدة عنواناً، وقد جاءت في مقدمة الديوان قبل البـــدء بمجموعة قصائده.

أول ما يطّلعنا عليه سامي مهدي هنا هو نفي المكان عن نفسه، فكأنه وجد نفسه منفياً عنه وكذلك فعل مع الزمان،(فهو راب يطل على كل ما في الجهات وهو في كل بارقة ماثل). إن وعي الشاعر وإدراكه العميق لزوال المكان والزمان هو الذي جعله ينفي انتماءه لهما وهذا ما يعكس حالة من القلق امتدت إلى عمق نفسية الشاعر وألحت عليه أن ينحو هذا المنحى ويتخذ موقفه الثابت هذا من المكان والزمان. إذن فما كان عليه إلا أن (يتوخى طريقاً) باحثاً عن بديل آمن لهما إنه طريق الخلاص من الزوال ومن القلق المصاحب له ؛ فيقترن مع بحثه هذا أنه(ينشئ جسراً إلى الله من كلمات) ليتعلق بالقدرة المطلقة المحيطة بكل شيء أملاً في خلاصه. (جسرا من كلمات).

ولعله عندما نفى أهم ركنين من أركان الوجود (الزمان والمكان) وأشار إلى عظم الحالة القلقة التي يعيشها وبحث عن بديل آمن لهما وجده عند الله تعالى لأن الشيء الذي أقلق الشاعر وأشعره بانبتات علاقته بوجوده (الزوال) هو محال على الله ، ومن ثم سيفلت الإنسان منه عندما يلجأ إلى ذلك العالم المطلق الذي لا يحده زمان أو مكان.

إشارة رقم (٢):

الشاعر في هذه القصيدة (المقدّمة) يثبت فيها محورين جوهريين في تجربته: أولهما : الزوال الذي يلف وجود الإنسان وأشد ما تمثل في المكان والزمان. وثانيهما : رد فعل الإنسان (الشاعر) في مواجهة هذا الزوال الذي تمثل بالتطلع إلى الخلاص وقصده وفي الوقت ذاته تعلقه بالقوة الغيبية التي هي السر في إنشاء الوجود. فهي القوة الوحيدة التي تستطيع أن توقف زوال الوجود وتنتشل الإنسان من دوامة قلقه.

إشارة رقم (٣):

إن المسافة التي يشغلها الزوال من نفسية الشاعر هي الأكبر والأعمق لذلك اتسعت دائرة الشعور بالقلق لحضور الزوال في واقع الإنسان وغياب الخلاص الذي عول الشاعر في تحقيقه كثيرا على (الله) القوة المطلقة دون أن يوجد لنفسه فعلاً مباشراً موجهاً إلى الزوال ، وهنا نلمس تكثيفاً لحالة القلق من جهة ، ومن جهة أخرى تعلقاً أكبر بالقوة المطلقة. ودون الإشارة إلى الناموس الطبيعي الذي جبلت عليه الحياة وهو البدء والانتهاء.

ولن نكون على عجلة إذا قلنا أن ظلال هذه القصيدة ستكون ممتدة ومتغلغلة في اغلب قصائد الديوان إن لم تكن فيها كلها.

لقد أحس الشاعر أن حركة كل شيء من حوله وحركته أيضا هي حركة عشوائية لا غائية يخلص منها إلى متاهة الإنسان في عالم يسير نحو المجهول بفعل الفناء والتلاشي، وهذا ما يجعل الخوف يتشرب في أوصاله حتى العمق مسبباً له قلقاً واضحاً . يقول الشاعر في قصيدة (المصعد) :[١٠]

صاعدٌ أنا

أو نازل
لستُ أدري
فما بين حدين من ظلمة وفراغ
يعلّقني مصعدٌ لا قرار لهُ ،
بينما يقف الآخرون،
هنـــا وهنـــاك
على ريبةٍ
في انتظـــاري

يتخذ الشاعر من المصعد هنا مكاناً تتضح فيه طبيعة صلته بالحياة ، ولكي تتكشف هـذه الـصلة يتخذ المصعد حركة عشوائية مضطربة بين الصعود والنزول في آن واحدة وهذا ما يوحي به الحرف (أو) (صاعد أنا / أو نازل) فاتجاه الحركة غائب عن وعيه (لست أدري) وإذا ثبت في الذهن أن ثمة حركة ما تلف الإنسان فهذه الحركة مضطربة في دوامة الزوال لا تعرف الثبوت. وأقـسى طـرفين يصلهما الإنسان جراء حركته القلقة هذه في الحياة هما الظلمة والفراغ وهذا يعني الـشعور بالـضياع والنفي.(فما بين حدين من ظلمة وفراغ / يعلقني مصعد لا قرار له).

وإذا كان الزوال قد فرض حركة قلقة على وجود الإنسان فهذه الحركة لم تقتصر على وجوده وتخبط مساراته، بل تعدت ذلك إلى فرض عزلته عن الآخرين من أبناء جنسه فتربصوا على ريبـــة بـــه. ولا يخفى ما في هذا المقطع من حالة شعورية داخلية قائمة بعنف هي حالة القلق من تفتت علاقة الإنسان بأخيه الإنسان وزوالها .

لقد خيمت فكرة الزوال على رؤى الشاعر فأخذ يعاين ببصر حديد ركبها الذي يمضي بنا بإصرار ليحيلنا إلى لا وجود حتمي ، لذا بدا الشاعر في رحلته مع الزوال متعقباً لفكرته ومتمعناً تـشكلها فـي الموجودات وهذا ما غرس في أعماق نفسه بذرة القلق التي بدأ نموها مسارعا مع تسارع حركة الزوال واتساعها . لقد وجد سامي مهدي أن كل شيء من حوله يحمل خواءه وموته في داخله فهو ما إن يبدأ حتى يؤول إلى نهاية واحدة لا يبقى منه غير أثر دال عليه في زمن مضى حتى لتكاد المعرفة الاسمية تصبح مفهوماً مجهولاً وهذا ما نجده في قصيدة العناوين: [١١]

العناوين فضفاضة
والذي يتصدع منها كثيرٌ
وأكثر منه الذي يتآكل
من صدأ
أو رنين

وأما الذي يتبقى

فأسمالها :

زخرف تالف

أو مسامير

أو بقعة من دهانْ .

هذه هي حقيقة وجود الأشياء فما يبقى منها سوى إشارة وضيعة إلى وجود تم زواله . وفي حالة من القلق والخوف ولإدراك الشاعر كنه حقيقة الأشياء وهو الموت المتجوهر فيها وتواصل الحياة به ، نجد الشاعر يتخذ موقفه من هذا الحال فيكمل قائلاً:

في حروب العناوين

آثرت أن أتشبّث باسم أبي

و أزوغ

وأخْـلي للآخرين المكانْ .

فهروبا من هذا الواقع يتشبث الشاعر بالماضي متخليا عن بهرجة المظاهر وتآكلها، فما انتفاعه بمكان أهون ما يقدمه إليه هو أن يوصله بقافلة الموت. فليدع إذن ذلك للآخرين الذين لم يدركوا ما أدركه الشاعر وهو توجههم نحو زوال حتمي وهم في غفلة الانشغال بالمظاهر المبهرجة. (١٢)

ولكن هل ينفع الشاعر موقفه هذا ؟، هل ينجيه مما أقلقه وأزعجه ؟ وهل يبعد عنه شبح الخوف الذي ترسم أمام عينيه ولو أطبقهما ؟.

(إن سامي مهدي يفجعنا من حيث يحتسب أو لا يحتسب، إنه يفجعنا من حيث أنه يعرينا ويكشف سوءتنا أو سوءة عالمنا أمام المرآة حتى من دون ورقة توت...). (١٣)

هذا الشاعر أدرك الزوال وفعله إدراكا عميقا حيا ظل يعيش معه كل لحظة فتزامن مع إدراكه هذا قلق عميق وإحساس مرٌ بالفقد وزوال الأشياء التي هو جزء منها. أن قلقه متأت من رؤيته الأشياء من حوله تأخذ في تهرئها وتلاشيها سواء أكانت على نطاق مادي أم معنوي حيث علاقات الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالموجودات من حوله، فليس أمامه إذن ــ إزاء كل ذلك ــ إلا أن ينتظر دوره في عملية التهرؤ تلك ليأخذ هو الآخر في تلاشيه وزواله، وإلا فما باله يؤكد هذه الحقائق تأكيدا محضا تحس به يخرج من أعماق نفسه المقهورة المفجوعة المتحسرة قبالة فلك زوال الأشياء المستديمة دورته (فما يكاد الإنسان أن يرى شيئا ويألفه حتى يفاجأ بزواله ،... وما يكاد الإنسان أن يؤسس علاقة ما مع إنسان آخر حتى تزول فالآخرون ينفضُون بسرعة عنه وهو لا يجد من يتلبث منهم لينخرط في علاقة حميمة). (١٤)

والأسرة أقرب نقطة ينطلق منها الشاعر في رؤيته تلك فهي تمثل أصدق رابطة تقارب بين أجزائها (أفرادها) وأعمقها لكن التقارب والألفة ينتهيان هما الآخران، فكل ما في الحياة يجري ويصب في زوال لا يعرف غير هل من مزيد. يقول في قصيدة إيقاع الأسرة :[١٥]

دورة هي:
أمٌ مؤنِّثة،
وأبٌ مستقيم ،
وفي دورة الأب والأمّ
ينتظم الولْد حتى الهلاك .
ويتخذ الحبُّ شكل السلالات
والإرث شكل القوانين
والبيت شكل القبور.
دورة هي،
إيقاعها مثقل بالرتابة والخوف
لولا دم يتلظى
ويحرق بعض الجذور.

(وهنا يصل الشاعر إلى درجة من التأزم النفسي لأن الموت المكاني والزماني أصبح قاب قوسين أو أدنى،...) [١٦] وفي ذلك مدعاة لقلق الإنسان فهذه الرتابة في حد ذاتها هي موت ، هي فقد لنمو الرابطة الأسرية وتأصلها في نفوس الأفراد ومن ثم خواؤها وزوال مقوماتها ، فعلاقة الانتماء هي علاقة خانقة تكاد أن تكون معدومة (يتخذ الحب شكل السلالات والإرث شكل القوانين و...).

بعد أن أدرك سامي مهدي حقيقة الزوال التي تمثلها شعرياً في قصائده فهو لم ينقلها قانوناً طبيعياً[١٧]، بل أحالها إلى شعرية تجعل منها شيئاً يحس ويتحرك ويوازي الأشياء في حركتها ، لا بل يزاحمها في وجودها نفسه و يطردها إلى حيث النفي والضياع ، لذا تكوّن له قلق من هذا المصير الذي لا مفر منه وأن العجز عن حيلة الخلاص غدا شيئاً قائماً بنفسه لا حاجة لدليل يثبته. يقول سامي مهدي : (أن الشاعر نفسه لا يملك أية وصفة لإنقاذ الإنسان بل هو لا يملك مثل هذه الوصفة حتى لنفسه فكيف إذن خلاصه؟).[١٨] فكل شيء آيل إلى انتهاء وهذا وعي بزيف بقاء الأشياء وبزيف كل فعل مصاحب لبقائها. فهل الغاية غير زوال وانتهاء ؟.

والسؤال الذي يدور هنا هو: إذا كان سامي مهدي مدركا بوعي عميق حقيقة الحياة المتمثلة بزوالها ، فعلام قلقه هذا ؟.

إن إدراك سامي مهدي هذا لا يعني أنه استغنى عن كل شيء في حياته أو زهد بكل ما يربطه بها ، إنه يستعرض فعل الزوال متألماً ومتأملاً وقد ملأ تأملاته حزنا عميقا يُشْعر بإحساسه بالفقد وبكبر دائرة عجزه أمام ذلك الفقد والسلب المستمر الذي أخذ يجرد الإنسان من كل شيء ؛ ويبقيه مفرداً على الرغم من مجاهداته للتشبث بأشيائه . فهو وحده يشهد دورة عجلة الزوال التي تعبث بكل ما حوله وتبدد ذاته من دون أن يعرف سبيلاً لإيقافها وإنقاذ ما يحرص على بقائه من فتكها. وقلقه هذا ينشطي منه حلمه الإنساني النبيل (إنه حلم من يريد الحفاظ على دفء العلاقات الإنسانية والألفة مع الأشياء. حلم من يشعر أن هذه المدينة مدينته وهذا الحيُّ حيُّه ، وهذا البيت بيته وأن من هم حوله أهل وجيران. حلم من يريد أن يعيش كل لحظة من عمره ويستوفي منها كل دين).[١٩]

وبسبب من حقيقة الزوال التي باتت تؤرق الشاعر (الإنسان) وترسم له صورة قاتمة عن نفسه وعن علاقاته بالآخرين من حوله ، صورة يتجاذبها الفناء من كل جانب ، فقد أخذ إحساسه بالوحدة والغربة والفناء يتسع اتساعاً معقداً. فهو (يواجه وضعاً أشد صعوبة حين يرى في الاندماج وفي محاولة الاختلاط بالآخرين تعميقاً لاغترابه...)[٢٠] ومن ثم فمن حق قلقه أن يزداد وهو يرى الحقيقة المرة تمدُّ أطرافها على سماء نفسه فتسلب كل عزيز منه وهو لا يملك إلا أن يراقب ذلك متجرعا مرارة فقده. ومما يشهد على حالته تلك قصيدته (العشاء الأخير)[٢١] التي جاءت صورة حزينة مثلت غربة الإنسان وخيبته في الانفتاح على الآخرين:

كان عشاءً فاخراً
فيه من الطّعام أشْهاه
وفيه من خمور الأرض أزكاها
وكنت فرحــاً بمن دعوتُ من أحبّائي
ومشتاقاً لكل واحد منهم
(.....)
لذا قعدت وانتظرت مَن دعوت / وانتظرت ساعة / وساعتين / ليلــةً / وليلتيــن وانتظــرتُ / وانتظرت / والطعام ساخنٌ / والخمر مختومٌ / فلم يجئني منهم أحدٌ / أو يعتــذرْ ..../ ...../ كــان عشاء باكيا / ومن دعوت رحلوا سراً / وجدّوا في الرحيل .

فإذا كان هذا العشاء بما وصفه يمثل محطة من محطات السعادة التي ينشدها الإنسان في الحيــاة ويحاول أن يغتنم فيها لذته التي لا تتم إلا بحضور أحبته ومشاركتهم وذلك ما نجده مكثفاً في قولــه (وكنت فرحا .. ، ومشتاقا ، وانتظرت ..). لكن الشعور بالسعادة سرعان ما أخذ يخبو ويتضاءل منــذ أن بدأ انتظار الشاعر يطول ، وهنا يُشْعرنا سامي مهدي بما يغتال سعادته وحلمه الإنساني.إذ يتيقن أن الزوال قد اغتال ذلك الحلم وبدد سعادته التي أبرز ما فيها هو لقاؤه بأحبته وهي إشارة إلــى توطيــد علاقة الإنسان بالإنسان وهي البنية الروحية التي افتقدها الشاعر بين بني البشر في عصر الــزوال .

وفي المقطع الأخير من القصيدة نجد كثافة الحزن والمأساة التي بات الشاعر يعانيها لمفرده بعد أن تبدد حلمه وأحس بعجزه عن استرداد ما أخذ منه وهنا إشعار بعظم فاجعة نفسه فرحيل الأحبة (.. هو الزوال الذي لا نستطيع مجابهته عندما يسطو على الألفة بين البشر ويوصف ذلك الرحيل بالسرية كاشفاً عن غموض يلفه ويجعلنا عاجزين عن مواجهته ودرئه).[٢٢]

إن سامي مهدي في قصائد الزوال يقدم لنا متابعة لتمظهر الزوال في الحياة الإنسانية من كل جوانبها وفي الأشياء وما يتبع ذلك من تغير وتحول يفقد كل شيء وجوده . ويبقى الإنسان هو النقطة التي تتكاثف حولها أشكال الزوال وتمظهراته في الكون والأشياء . وليس أدل على ضياع الإنسان في هذا من ضعفه وعجزه في رد الأشياء التي يُستلبُها وهو في غفلة من أمره والفكرة في شأنه. ففي(ورقة ليست لكافكا) يقول الشاعر:[٢٣]

دبَّ القراد إليه
فاسترخى
ونام
وتكاثرت زمر القراد ،
فما أحسّ
وظل يحلم بالسلام .
حتى إذا ما مرّ يوم واستفاقَ
تخلعت أطرافه من جانبيه
ولم يجد إلا العظامْ .

إن التفكك والتفسخ الذي يهدد الإنسان في رحلة حياته هو صورة ماثلة أمام عيني الشاعر في كل حين وهو يراها في كل شيء من حوله، ويصاحب وعيه هذا شعور بقلق مستديم وهو شعور وجودي لم تخل منه التجربة الإنسانية على مر الزمن.

ولو تابعنا قصائد الزوال في هذا الديوان لوجدنا أن الشاعر يسعى إلى تسجيل أكبر قدر من تمظهرات الزوال في الكون والأشياء والإنسان وهو بهذه القصائد يعكس لنا سعة المساحة التي يشغلها حضور الزوال في الحياة. وكذلك سعة دائرة الشعور بالقلق التي يضطرب في دواستها الإنسان (الشاعر) إلى الدرجة التي تنتفي عنده يقينية انتمائه للمكان والزمان. **(لا مكان له / وهو راب يطل على كل ما في الجهات / لا زمان له / وهو في كل بارقة ماثل).**

إن مجرد إدراك الشاعر لضياع الأشياء من حوله وفقدها هو عين إدراكه لفقد وجوده هو ، فمن حقه إذن أن يطلق صرخته المدوية التي تحكي ثقل قلقه الجاثم على نفسه في قصيدة (الزوال)[٢٤] التي صورت ذلك كله خير تصوير :

أوقفوا العالم

فالأشياء تهتزُ

وتجري دون إبطاء

وتمضي المدن

الأمكنة / الناس / البنى / الأفكار / من حولي / ولا / أقدر / أن / أمسك / منها / أي / شيء / أي / شيء / ... .

(إن بعثرة الكلمات بهذه الطريقة تجسد بشكل صارخ عدم القدرة على الإمساك بأي جزء من أجزاء هذا العالم المبعثرة ، والذي يمضي إلى الزوال سريعا وهو أمر يلقي بالشاعر في ذروة إحساسه بالغربة والهجران).[٢٥]ولكن الأزمة التي جعلت الشاعر يرى الأشياء في الصورة التي تبدو فيها منفلتة عن بعضها ومستعصية على سيطرته هي أزمة التطور المادي الهائل الذي يشهده العصر وقد سببت له مشكلة روحية عميقة على حد قوله: (وهي بإيجاز إخفاق الإنسان في استيعاب التطور المادي الهائل والتكيف معه . فالإنسان الذي أدار عجلة التطور بيديه لم يعد قادرا على اللحاق بها ... وهكذا لم يعد باستطاعته أن يجزم بأنه هو الذي يديرها وليس العكس. فهي تبدو الآن وكأنها تجري بفعل آلية خاصة ، آليتها ، وتسحبه خلفها مصدعة هيكله الروحي ومالئة بنيانه النفسي بالقروح والكدمات).[٢٦]

إن حركة زوال الأشياء من حول الشاعر مستمرة دون توقف ودون أن تكترث هي الأخرى بمحاولاته المستمرة للإمساك بأي شيء منها، أي شيء ، صغيراً كان أم كبيراً ، مادياً أم معنوياً ، فيستمر فشله تبعا لذلك . إن مجيء كل حدث هنا في صيغة المضارع يعمق دلالة الاستمرارية تلك ، ويوحي بدوام القلق والتوتر المصاحب لها (تهتز ، تجري ، تمضي ، لا أقدر ، أن أمسك ،...). وبعد إدراكه فشله في مواجهة الزوال يعود إلى ذاته ليتجرع مرارة الفقد والوحدة وانتظار المصير المؤلم الذي لا مفر منه ؛ فيقول بذات النسق المتناثر من كلمات كأنها أشلاؤه التي يعجز عن لمّها :

فأخليها

وأبقى

ثاويا

وحدي

بلا

جار

ولا

أي

صديق

آه ،

ما أسرع ما أبكي

وما أضحك

ما أسرع أن أوجد في الكون

و أحيا

وأموت.

لقد شحن الشاعر كلماته التي أراد لها أن تكون صورة مُمثِّلة لأشياء هذا العالم التي فرقها الزوال ، شحنها بعمق أساه وقلقه المشحون بالحزن والألم والخوف من تلك السرعة التي تُمْزَج ضحكه ببكائه وتختصر المسافة بين أن يحيى ويموت .

إن الأسطر الثلاثة الأخيرة من القصيدة توجز بعمق وكثافة نظرة الشاعر إلى الحياة التي ما أن تبدأ حتى يدهمها الموت . كما أن مجيء الفعل المضارع (أموت) في نهاية القصيدة يحمل دلالة المحطة الأخيرة التي تصير إليها حياة الإنسان والأشياء من حوله ، دونما توقف .

ومن ثم فقد رأى الشاعر الموت هو المظهر الحقيقي للحياة وهو وجهها الحقيقي المتخفي فيها ، فكل منا يحمل موته في داخله . يقول في قصيدة (البذرة) :[٢٧]

مظهر للحياة هو الموت

بل وجهها الآخر المتخفي ...

مظهر للحياة هو الموت

بل بذرة نبتت معنا في أجنّتنا

ونمت في دواخلنا ،

فهي فينا

ترافقنا حيث كنا

على خضر رئة

أو غـروش .

وعل هذا يكون الموت هو الشاخص الذي لم يفارق عين الشاعر ، ولم يغب عن وعيه لحظة ، إنه يجده قريبا لكن لا يعرف أين ومتى سيلاقيه ، وهنا مبعث قلقه وترقبه فهو يحس بالخطر يدنو منه في كل حين دون أن يملك رده . والذي يعمق قلقه هنا أنه لم يتبين بعد طريقاً أكيدا لخلاصه . وعلى الرغم من ذلك فإنه لم ييأس بعد ، فما زال يحاول ويمد عينيه إلى الأفق المفتوح عله يجد فسحة من خلاص ؛ يقول:[٢٨]

لا بد أخيرا من أفق مفتوح

ورئات أخرى
وعيون أخرى
وقلوب أخرى
لا بدَّ أخيراً من أن تنطلق الروح
من أسر الزمن المكتض
الزمن المتسرّب منّـا
الزمن
الريح .

الشاعر ترك العنوان هنا مفتوحاً فما زال الخلاص عنده حلماً لم يتشكل حقيقة ، وكما رأى طراد الكبيسي أنه يمكن أن يضع كل منا عنوانا لهذا الخلاص ، فما زالت الأشياء تدور في حركة تحـول وتبدل.[٢٩] وما زال القلق قائما لأن الفقد والفوت ماداما قائمين .

ولكن السؤال .. هل هذا الخلاص ممكن ؟ إن سامي مهدي يصرح لنا بأنه لا يملك بين يديه الآن (أية وصفة لإنقاذ الإنسان ، بل هو لا يملك هذه الوصفة حتى لنفسه ، فكيـف إذن خلاصـه ؟).[٣٠]إن الخلاص هو في توفر الحياة الإنسانية الثرية التي يغنم الإنسان كل لحظة فيها ويستنفذها تجربة وتأملا ، ويصعد بها من الجزئي إلى الكلي ومن الحسي إلى الروحي ويصنع من ذلك فردوسه الخـاص .[٣١] لذا بقي الخلاص حلما متعلقا في الأفق المفتوح ــ (في هذا القسم من الديوان) ــ إذن فلننتظر مجيئه ، فللزوال بقية في تجربة سامي مهدي لم تكتمل بعد نجدها في مدن الحاضر والماضي.

قصائد المدن ومرحلة الكشف

لم يغب عن وعي سامي مهدي حال المدن وما يعتورها من فعل خفي للزوال. فهي كما الإنـسان والأشياء وجدها منتمية إلى ركب الزوال متنكرة لانتمائها هذا أو متجاهلة أو غافلة . (إن الثيمة التي تتآلف فيها المدن والناس والأشياء هي التغير والتآكل والفناء . كل شيء ملغوم منذ البدء بالتغير والفناء ولا خلاص ولا منجاة لأحد ..).[٣٢]

وعندما نقف على عتبة مدن الشاعر الزائلة نجدها تصطنع الغواية لتغـري عـشاقها بالـدخول وتمنيهم بنيل لذاتهم وسعادتهم ، وما أن يدخلوها حتى تصدمهم، أنهم عشاقها الفقراء الذين رأوا فيهـا حلمهم . فهي مدن سهلة (رخيصة) رخوة في تكوينها وفي علاقاتها الإنسانية التي تغيرت بنيتها عما كانت عليه في الماضي ولم يبق للإنسان من ذلك إلا شيء من ذكريات. لقد عصفت بهذه المدن ريـح التغير والتبدل وآلت إلى زوال تلاشت به معالم الإنسانية فيها .

المـدن[٣٣]
مدن كالنساء

لكلِ شجاها إذا أصبحت ،
وغوايتها حين يأتي المساء .
مدن حلوة حين تُغوى
وطيّعة حين تؤتى
ولا تتقي غير عشاقها الفقراء
مدن سهلةٌ
رخوةٌ
مدن كالحساء .

الشاعر هنا لم يخص مدينة بعينها فهو شهد فناء المدن دون تحديد ، وشهد فناء أشيائها وتفكك البنى القائمة فيها وحالة التحلل والضياع السائدة فيها ، فليس للمرء إلا أن يشعر بالنفي والتبدد والاغتراب وهو يعيش زحمة المدن وسرعة تطورها التي تجعلها تعيش حركة تغير وتبدل تلف الإنسان فلا يستطيع احتواءها أو السيطرة عليها.

إن حالة الزوال التي تشهدها المدن هي صورة كبرى لزوال الإنسان الذي يسكنها . ولعل هذا ما أراد سامي مهدي الإشارة إليه وهو يقدم لقصائد المدن في هذا الديوان بقولة شكسبير : (ما المدن إن لم تكن الناس).[٣٤] فما حال المدن التي وقف عندها الشاعر بمختلفة عن حال الإنسان الذي ينتظر دوره في لعبة الحياة القائمة على التبدل والزوال، وليس أمامه غير خوفه وقلقه من النهاية القادمة دون إبطاء . وبهذا تكون المدن رمزاً عميقا لقلق الإنسان (الشاعر) الذي لا يرى فيها غير موت وشيك وتنكر للعدل والأمان. يقول في قصيدة (كابودي روكا)[٣٥]

ـ ما الذي خلف هذا المحيط سوى الموت ؟
قال المغيرون .
ـ بل عالم شاسع طورد الله فيه
فضاق به ملكه
وانزوى ينشد الأمن في الخلوات .

إن الشاعر سامي مهدي عندما يتناول فكرة الزوال إنما (..يدس وعيه في مجريات الحياة اليومية معبرا عن الحالة اللاواعية أو اللامحسوسة ـ بالرغم من حسيتها ـ في حياة الإنسان اليومية وحركة الأشياء في تغيرها والإنسان في لا وعيه للتغيير الذي يتعرض له كل يوم وآن).[٣٦]ومن خلال ذلك طرح سامي مهدي أمامنا هذه الفكرة بشكلها المحسوس المتشكل في هيأة مشحونة بالروح والحركة ، تلك الهيأة التي تجثم ظلالها على روحه فتثير في داخله الخوف والقلق وقد تمثلتها تجربته في رحلته هذه مع الزوال.

وهنا تكون قصائد المدن متضافرة مع قصائد الزوال في كشف المساحة الكبرى التي يشغلها الزوال من نفسية الشاعر وتظليلها بلون القلق المصاحب له ليتبين لنا المحور الجوهري من تجربة الشاعر في ديوانه ، وهذا ما سبق التنويه له في صدر البحث (الإشارة رقم : ٢) .

وإمعانا في تأكيد فكرة الزوال وتتبع سعة مداها نجد الشاعر ينطلق من ميدان الزمن الماضي ، الزمن السحيق الذي شهد الإنسان وطواه في مر صفحاته . ففي قصائده (من ألواح سومر) نجد حضورا واضحا للزمن الماضي متشكلا في أبرز صوره بالفعل (كان) الماضي. إن هذه القصائد هي محاولة من لدن الشاعر لمعاينة الحالة ليس في لحظة حدوثها أو الوعي بها ، ولا في ملاحقتها إلى ما ستؤول إليه ، بل في استرجاع ما كانت عليه بدأ . وهي تشتمل فيما تشتمل عليه وعي الإنسان بالأشياء قبل أن تتحداه وتكشف عجزه .

إن انشغال الشاعر ومتابعته لأثر الزوال في الوجود ليعكس فيما يعكس مدى قلقه وشعوره بالخطر المحدق به . فهو دائما وفي كل الأحوال بما فيها استرجاعه للزمن الماضي يرتجف ضعيفا أعزل وهو يواجه في لحظة غير محددة ولا مفهومة مصيره المحتوم.

والشاعر هنا في استرجاعه الزمن الماضي ينقل الواقع الذي يعيشه في سلبياته أو يشير إليه فيعلن فداحة اللحظة الحاضرة من خلال قرنها بالماضي المسترجع . فهو في قصيدته (لوح أوروكا جينا) كأنه يضع أصبعه على السر الذي فقدته اللحظة الحاضرة وفقده الإنسان والعصر والمدينة . فكان هذا الفقد بمثابة الثقب الذي تسرب منه الزوال إلينا دون أن نشعر. ذلك السر هو صلة الإنسان (السلف) الوثيقة بالرب والمتمثلة بالحكمة وحب الإنسانية وسيادة العدالة . فعلى هذا قامت حياتهم بعد أن عمروا الجانب الروحي في مجتمعهم الإنساني . يقول سامي مهدي في هذه القصيدة :[٣٧]

كانوا أسلافا لا نعرف نسبتهم

لكن لهم أكثر من صلة بالرب

وكانوا حكماء

يحبون الناس

ولا سلطان لهم فيهم إلا بالحكمة ...

وإذا كان سامي مهدي قد رصد عمران الجانب الروحي في المقطع الأول من هذه القصيدة ، وبنية الأرض والإنسان التي قامت عليه في المقطع التالي الذي يقول فيه :

أما الأرض

فكانت بستانا مفتوحا

والناس ملوكا فيها

كانوا طلقاء

أصحاء ..

إذا جاعوا أكلوا
وإذا تعبوا ارتاحوا
والولدُ كثير
والقوت وفير .

فإنه يشير إلى نتاج عمران الجانب الروحي المؤسس على الصلة بالرب والحكمة من العدل و والأمن والطمأنينة والدعة والخير .هذا النتاج الذي لم يجده في زمننا الحاضر أو واقعه الذي يعيشه . وهذا ما مثله المقطع الأخير من القصيدة الذي يتغير زمنه إلى المضارع وقد جاء بصيغة الاستفهام ليتم عن حيرة وقلق إزاء الوضع الذي صار إليه إنسان الحاضر فاقدا عناصر البناء الروحي والحضاري ؛ يقول :

هذا ما يرويه الآباء
ففيم تغير شأنُ الناس
أ من خطأ منهم ؟
أم من خطأ آخر ..
أم كثُر النذرُ وعزّ المنذور ؟ .

إن سامي مهدي معني بزوال الحالة الإنسانية وانتفاء وجودها في مدنه الحاضرة ، فالإنسان (لم يعد يشعر بحميمية الانتماء إلى بنية يحرص عليها وتحرص عليه ..).[٣٨] لذلك يمكن القول أنه في الوقت الذي يستجلي فيه الصورة الناصعة لتلك الحميمية في المدن السالفة ، فإنه في الوقت ذاته ينعى تلك الحميمية ويشير إلى فقدها وغيابها عن مدن واقعه الحاضر . وفي هذا ما يكفي لإثارة قلقه وخوفه من المصير الذي يتربص بتلك الحميمية ، ويهددها . أن الشاعر يحرص هنا على إبراز الجانب الروحي والإنساني في المدن القديمة (مدن الأسلاف) في أقصى درجات ترابطه وتعالقه ؛ فنراه يقول في قصيدة (أريدو) :[٣٩]

كانت هنا
وهنا تطهرّ أول الأسلاف
واستوصى بآخرهم ،
فكنا عبر أجيال من الصنّاع نبنيها
ونُعلي أول الأبراج فيها

لقد تحقق وجود هذه المدينة وتحققت كينونتها بتحقق طهر الإنسان فيها وعمق الإنسانية التي تمثلها الأسلاف وهم يستوصون بآخرهم من دون انقطاع علاقتهم بالرب .

(وزنّـا الأرض بالأحلام / شدنا مدنا أخرى / دون أن نفتر أو ننسى / فكنا حين يأتي الليل نبكي / كلنا نبكي / لئلا تجحد الأرباب / أو نستغضب الأسلاف / (.....) / كان سرا / كـان تأريخـا مـن التقوى / كان إلهنا فينا) .

إن الحذر من الغفلة عن الاتصال بالرب والخوف من الوقوع في الخطيئة هو أهم ما تمسك به الأسلاف وهم يبنون مدنهم

روحيا ومادياً . وهو أيضا أهم ما يؤكد ه الشاعر في هذه القصائد وكأن الإنسان فيها ظن أنه بدأ يهتدي إلى السبيل التي تُنجيه من الزوال ، وتؤمن روعه وخوفه . فالإنسان في هذه القصائد أخذ (يتوخى طريقا / وينشئ جسرا إلى الله من كلمات) .وهذا ما لم نجد له حضورا في (قصائد الزوال) التي وقفنا عندها سلفا .

إن المحيط الذي يعيشه الأسلاف هو محيط محفوف بالمخاطر المحدقة بكل إمكانات الحياة . (لذلك فقد بدأ الدين مع أول خطوة خطاها العقل البشري لتأنيس الطبيعة من حوله ، ....، يقول أ.أو. جيمس : تُعطي الأحداث اليومية ــ في المجتمعات البدائية ــ أهمية الأسرار المقدسة بربطها بقوى فوق طبيعية بوصفها المنبع المطلق للخير والرحمة . فتلبية الاحتياجات الزمنية متوقف على العلاقة الصحيحة التي تقوم مع هذه القوى اللامنظورة).[٤٠]وبهذا ينشأ الأيمان ويتعمق في النفوس فيوجب الألفة والحب والوفاء ويحيي الإنسانية في المجتمع ، فهي الباعث على ديمومة إقبال الحياة في تلك المدن ، وبحرص يؤكد الشاعر ذلك ويستجليه بكل دقائقه دون أن يغفل الفعل (كان)المؤشر الواضح لفعل الزوال . أن الشاعر بأسلوبه هذا يمازج في رؤيته هنا بين التوق إلى إقبال الحياة وديمومتها والإشارة ــ في آن واحدة ــ إلى افتقادها وخلو مدنه الحاضرة من مقومات تكوينها الصحية ، ومن ثم إحساسه بيقينية خضوعها إلى قبضة الزوال الرهيبة .

ولعل مدن الأسلاف التي وقف عندها سامي مهدي واستجلى مظاهر تكوينها العامرة هي نفسها التي توخّى فيها خلاصه فتراءت في أحلامه وهو ينظر إلى الأفق المفتوح في رحلته مع الزوال ، وكأنه ظن أن بنيتها العامرة تلك إذا ما توافرت في مدنه الحاضرة كانت خير وسيلة لمجابهة الزوال والخلاص منه .

وإذا كان الفرح قد وجد في تلك المدن السالفة بما وطده أهلها من علاقة بالرب والإنسان فإن وجود أزمنة الفرح كان عابرا غير مستديم ؛ فهي لم تساعد على تبديد الشعور بالقلق إلا في مجالات ضيقة . ففي قصيدة (رواية عن الطوفان) نجد تحقق لحظة الفرح التي أعقبها قلق وتجديد لحالة الشعور بخطر الزوال .

ونحن لا نتفق مع من يرى أن هذه القصيدة هي آخر قصائد الزوال أو أنها خاتمة رواية الزوال.[٤١]بل نجد فيها نهاية صراع الإنسان مع الزوال (مهزوما) من خلال تيقُنه من فشل مجابهة هذا المارد المخيف ، ونكوصه إلى حيث الإذعان إليه وتبدد حلم الخلاص منه . فمع تحقق لحظة الفرح

رحلة وكشف قراءة في ديوان الزوال لسامي مهدي

الموهومة التي تمثل توقف هذا الصراع ، يصحو الإنسان على حالة من القلق المرير إذ تنفلت من بين يديه كل آمال الخلاص ، ولم تعد تضرعاته تجدي نفعا ، كما أحس بتهرئ بنية الجانب الروحي الـذي كان مستندا إليه في رحلته الطويلة تلك .

إن قصيدة (رواية عن الطوفان)[٤٢] بدأت بعدة نقاط . وكأن هذه النقـاط تمثـل كـل الأحـداث المرعبة التي شهدها الإنسان في صراعه مع الطوفان (رمز الموت وجبروته) .

... ولما كفت الأمطار

وانجلت العواصف ،

كان من في الفلك قد تعبوا ،

فناموا ، واستطابوا النوم ..

ناموا ربما شهرين

أو سنتين ..

ناموا مذعنين

وإذ أفاقوا لم يروا في الأفق غير الماء ...

هذه النقاط أيضا كأنها إشارة إلى ما أصابهم من دهشة وروع ، وما دار بينهم من لغط لأن الماء لم يزل بعد ، وكانوا ظنوا أن الخطر قد زال فناموا .. واستطابوا النوم . ولا نتخطى لفظ (الأفق) هنـا دون أن نقف على دلالته المكثفة للقلق والمثيرة للخوف والجزع ، فهو أفق تغيم فيه الرؤية ، أفق يكمن فيه شبح الموت وهو هنا على العكس من الأفق المفتوح الذي ترف فيه أحلام الخلاص والنجاة . فمن الطبيعي بعد ذلك أن يبدأ التساؤل المشبع بالحيرة والدهشة والقلق ...

قالوا :

((كم لبثتم ؟))

((ربما يومين ...))

قالوا :

((ربما يومين...))

والشاعر وهو يسوق هذا النوع من التساؤل على غرار ما جاء في القرآن الكريم ليـوحي بجـو الدهشة والذهول والخوف ، وكأن أولئك النائمين لما استيقظوا ظنوا أن القيامة قد حانت وهم على وشك أن يلاقوا مصيرهم الأبدي من دون مفر . ومما يعزز ذلك دلالة السطرين التاليين إذ يوحيان باستحالة الخلاص وتيقن الضياع :

أما الفلك فاهترأت جوانبه

وعاد بلا بشائر كل طير أطلقوه

وهنا تكثيف للحالة القلقة إذ تهزأ الفُلك (النجاة) ، والطير بلا بشائر عاد (الأمـل) . وتـدعيما لرؤيتنا بأن القصيدة تحمل دلالة إذعان الإنسان لسلطة الزوال وتخليه عن حلمه في الخـلاص تـأتي الأسطر الأخيرة من القصيدة موضحة ذلك ، فما عادت الصلة بالرب (وقد جاءت بعد فوات الأوان) ذات جدوى لأن الزوال أحكم قبضته بإصرار ليفضي بالإنسان إلى حال من القلق يواجه فيها مـصيره مهزوما . :

فأكثروا الصلوات

وانتظروا ..

ولما أيقنوا ألا مفرّ ، استغفروا أربابهم ، وبكوا

وناموا مرة أخرى ...

وما تكرار هذه النُقط هنا أيضا إلا إشارة إلى ما سكت عنه النص أو الراوي من أحداث يتصورها المتلقي وهو يستشعر تجربة الشاعر ويدخل جوّها . إن هذه القصيدة تمثل الهزة التي أيقظت الإنـسان من حلمه القصير بالطمأنينة ليدور دورة ثانية مع الزوال ، ولكن زوال المعرفة هذه المرة أو ما ظن أنه صحيحا مما اكتسبه من تجربته أو رحلته السابقة مع الزوال . فما عليه بعد هذه الهزة إلا أن يعيـد حساباته ويتثبت من صحة تصوراته التي تراءت له وهو يستكمل تجربته فيما مضى من قصائد هـذا الديوان .

لاشك أن المعرفة من أثمن ما تعتز به البشرية . ألم تكن الموجب لسجود الملائكة كلهم لآدم حـين علمه الله تعالى الأسماء كلها ؟.(وماذا لو حُرم الإنسان من هذه الملكة الثمينة أو شعر بأن معارفه كلها إنْ هي إلا محض عماء ؟ ، ألم يكن ليتألم ويقلق ؟ ذلك ما نعتقده غير مرتـابين).[٤٣]ولعـل الـشك والتردد في قبول الثوابت الفكرية هو عتبة العماء الذي يلف معرفة الإنسان وهو يعيش وضعا نفـسيا قلقا مهزوزا ومهزوما . فبعد القصيدة السابقة تأتي قصيدة (كسرة من لوح عُثر عليها مصادفة) تمثل حالة من الشك والهزيمة النفسية والتردد من قبول ما تصوره الإنسان (الشاعر) صحيحا في المرحلة السابقة وسعى من أجل بلوغه إلى درجة أنه دخل في صراع مرير مع النفي الوجودي ولما استقر في فهمه أنه مهزوم لا محالة عاد إلى ذاته متسائلا ــ ولما يزل في دوامة خوفه وقلقه ــ من المصير الذي أوشك أن يلاقيه . يقول في هذه القصيدة :[٤٤]

هل طهّر الطوفان رجسَ الأرضِ

واستبقى من العبّاد أتقاهم ؟

وماذا لو تبقى رغم كل ضراوة الطوفان

فجّار ونصابون ؟

ماذا لو تجبر بعض من في الفُلكِ

وائتمروا بمن معهم ؟

الزوال وقلق الإنسان

رحلة وكشف قراءة في ديوان الزوال لسامي مهدي

أكان سيُمحق الجوديّ
أم تُطوى على الفلك المياه ؟

إن هذه التساؤلات عن حقائق استقرت في المفهوم الإنساني تحمل فيما تحمل من أبعاد نفسية مضطربة ، تهشما معرفيا . فها قد بدأ التآكل والتلاشي يمتد ــ بعدما عاث في محيط الإنسان ــ إلى معارفه وما كسبه من خبرة . فإذا كان الأسلاف قد تطهروا من أولهم واستوصوا بآخرهم وكان لهم أكثر من صلة بالرب .. ، فها هو الشك والتردد بدأ يظهر أمام قبول ذلك ليحيله إلى يقينية مهزوزة أو لا يقينية مستقرة . فمن قال أن الطوفان قد طهر الناجين وأخلصهم ؟، ومن قال أن رجس الأرض قد انمحى منها ؟، وهل القلة الناجية نقلت أخبارا صادقة أو كاذبة ؟ ليتسنى للخلق قبولها أو ردها . :

وهل نجت من غضبة الطوفان إلا قلة
واستأثرت برواية الأخبار عنه
وهل لنا إلا القبول بما روتْ .
إن عزّت الأخبار
أو كثُر السؤال ؟

وإذا مثلت هذه القصيدة مرحلة من تجربة سامي مهدي في ديوانه ، هي مرحلة شك الإنسان وقلقه وتردده إزاء الإقرار بتحقق لحظة النجاة وطهر الإنسان وهو يرزح تحت وطأة الزوال الذي ما انفك منه لحظة . فإن القصيدة التالية تجسد الحالة التي تمخضت عنها حالة الشك تلك وتهشم البنية المعرفية لدى الإنسان وزوالها . تلك الحالة هي نقطة الكشف التي أدرك إنسان الزوال عندها عدم يقينية الخلاص وأنه كان موهوما بخيط دخان ظن أنه سيوصله بالمدينة الحلم التي راح يبحث عنها ويمني النفس ببلوغها وهو في زحمة مجاهداته للخلاص من عجلة الزوال الدائرة .

لقد رمز سامي مهدي لمدينته (الحلم) وعالمه الصافي الطاهر الذي راح ينشده ويؤسسه بعيدا عن قبضة الزوال وإفساده الذي طالما أقلقه وكدر عليه انتماءه الوجودي والإنساني ، رمز إلى ذلك بمدينة (دلمون) الأسطورة التي عرفها الإنسان قديما (بلدا للطهر والصفاء ورغد العيش ، أرض لا مرض ولا موت ولا شرّ فيها).[٤٥] فهي بمثابة جنة الفردوس والخلد التي لا نهاية لها أو لمن دخلها . ولكن هل بلغ الشاعر (الإنسان) مدينته هذه ؟ وكيف كان الطريق إليها ؟، أم أن الزوال الذي بدد كل شيء أيقظ الشاعر ليريه الحقيقة المرة التي تواجه طلابها بعد الجهد والعناء ؟. يقول :[٤٦]

دلمون
الطريق طويلٌ
وملتبسٌ
ووراء الطريقْ

أفق غامضٌ

ما تكاد تطالعه العين حتى يضيق .

كل ما في هذا المقطع يسهم في تشكيل حالة الكشف التي تميط اللثام عن تلك الحقيقة المرة ، فالشاعر يطالعنا منذ البداية بملامح تلك المدينة التي تكشفت له حقيقتُها بعد أن كان موهوما بها حين اتخذها حلما راوده طويلا . فطول الطريق والتباسه ينفتح على أفق غامض مُذلهمّ ليس فيه قبس من نور ، ما تكاد تطالعه العين حتى يضيق .. إنه غير ذلك الأفق المفتوح الذي كان يأمل أن يجد فيه خلاصه . وهنا نلمس كثافة حالة القلق إذ يدخل الإنسان في التّيْه وضبابية الرؤية فتنقطع به سبل النجاة وتذهب محاولاته في التثبت والتيقن أدراج الرياح ، وينكص تَعِبا مريبا . :

والسراة إلى أرض دلمون قد تعبوا

فاسترابوا

إن ضبابية الطريق إلى دلمون وكابوسيته أدت بالسراة إلى التعب والريبة . فهل عالم دلمون كائن في الحقيقة ؟، وهل يتسنى لأحد بلوغه؟. وهكذا ينمو شعور بالعماء يُميت آمال الإنسان وينفي إرادته ويفضي به إلى القلق والخوف ، ومن ثم يوصله إلى الكف عن بذل الجهد وتحمل العناء من أجل أشياء دخلت في دائرة الوهم إذ لا يقبض المرء منها على شيء.

ودلمون ليست سوى حلم وبروق

أين جناتها

وهياكلها

وعلى أي شطآنها طافت الروح

فاستنقرتها العروق ؟

وفيما تزداد علامات التعجب والأسئلة يزداد قلق الإنسان وحيرته وهو يقف وحيدا أعزل أمام مصيره .فحتى حلمه وأمله ببلوغ الخلاص بدأ يتلاشى شيئا فشيئا . فأين هي دلمون ؟، أين جناتها وجلالها وشطآنها ؟، أين كل تلك العناصر المكونة لمدينة الحلم التي كانت حاضرة في ضمير الإنسان مع بدء الرحلة ؟.

(أهي ماثلة ؟ / أين ؟ / في طلل / أم طقوس ؟ / ومن أيّ أربابها نطلب الصفح / إن نتّهم بالعقوق ؟) .

كل هذه الأسئلة وأمارات التعجب تفضي بالإنسان ــ في مرحلة الكشف ــ إلى تقبل الحقيقة المرة وهي انتفاء حقيقة دلمون، لا في الوجود المادي القديم (الطلل) ، ولا في الأثر الروحي القديم (الطقوس) :

(ليس ثمة دلمون .. / أو فلنقل : / ليس ثمّة منها سوى الوهم .. / دلمون أسطورة / صاغها كاهن ثم مات / وظلّت كما بدأت / شطحة في خيال عتيق .).

وهنا يستكمل الشاعر ذروة التجربة النفسية إذ يخلص إلى يقينية انتفاء حقيقة دلمون ، وينهي حلمه على حقيقة مرة وهي خيبة مسعاه وضعفه أمام الزوال .

ولم يبق لديه بعد ذلك الكشف إلا أن يقف واعيا ، مدركا لحقيقة عالم الإنسان والأشياء من حوله وهي رهن للفناء والزوال منذ بدء الحياة حتى منتهاها ؛ ليفصل في ذلك ــ مصححا نظره ــ بين عالم الإنسان المادي المحدود ، والعالم الآخر المطلق الذي لا يصل إليه ما يكدر صفو العيش ، العالم الذي اختصت به الآلهة دون البشر كما استقر في فهم الأسلاف من قبل . وفي ضوء هذا الفهم الجديد (الكشف) الذي بلغه الإنسان بعد تلك الرحلة الطويلة مع الزوال والقلق كان عليه أن يثوب إلى رشده ويعود إلى ذاته ليقف على البون الشاسع بين قدراته مخلوقا ضعيف القوى ، عرضة للفناء ، وبين الآخر المطلق ذي القوة الأبدية التي لا تزول .يقول في قصيدة (تعليق لأمين مكتبة آشور بانيبال):(٤٧)

كم إله
وكم كاهن بجّل السومري
وكم معبد شاد واختصه بالتماثيل
أما الرقى والنذور
وأما التراتيل والصلوات
فلا عد يحصرها ..
تعب السومريّ
ولم تتعب الآلهة .

ليس لنا أن نمر على عنوان القصيدة فنغفل ذكر (المكتبة) فيه دون أن ندرك الإيحاء بثبوت حقيقة ما تتجوهر عليها القصيدة ؛ إذ أن المكتبة في المفهوم الإنساني هي مكان لحفظ العلوم والحقائق التي توصل إليها العقل البشري وسلم بها ، إذن فثمة حقيقة لابد من ذكرها في آخر المطاف وهي أن الزوال مختص بالإنسان وعالمه دون العالم الآخر المطلق ، فهو ــ أي الإنسان ــ مهما حاول مشاركة ذلك العالم ولو في أقل صفاته فستكون النتيجة فشله وأفول نجمه. (تعب السومريّ / ولم تتعب الآلهة) . السومري (الإنسان) الذي أوكل كل شيء للآلهة (القوة المطلقة) وانتظر منها أيضا كل شيء في تحقيق خلاصه ودرء الزوال عنه . إذ لم ترد في تلك القصائد ولا في القصائد السابقة أية إشارة إلى فعل إنساني يواجه الزوال مباشرة ، بل نجد أن أفعال الإنسان لا تتعدى التضرع والتقرب والاتكال على الآلهة في رد الخطر وتحقيق الطمأنينة. وهذا ما أراد الشاعر هنا ــ في مرحلة الكشف ــ رفضه وفضحه كنقطة ضعف انطوت عليها إرادة الإنسان في عصر الزوال ففشلت في النهاية .

إن استحكام قبضة الزوال وخضوع الإنسان رغم إرادته إليها وكذلك الأشياء من حوله ، وحتمية تهرئ المحيط الإنساني وفنائه هو الحقيقة التي ما كان يتقبلها الإنسان في رحلته مع الزوال وهو

يحرص على حياته المادية وديمومتها ، لكنه يتوصل إلى تلك الحقيقة بنفسه بعد رحلة أشبعته ألما وقلقا ومعاناة .

إن خطأ الإنسان هو الغفلة عن التفكر في سبيل خلاصه ، لا في بحثه عن الخلاص . لذا كان قلقه قلقا سلبيا لم يتجاوز به حد الخوف والتردد وتأمل الخلاص وترقبه دون السعي إلى تحقيقه والخروج به من عالم الأحلام . إذن كانت مرحلة الكشف هي الذروة التي انتهت إليها رحلة الإنسان القلق مع الزوال ، ليقف على حقيقة عالمه المحدود الفاني . ومن ثم فقد توجب عليه (بعد هذا الكشف) أن يعيش الصفحة المشرقة من تجربته ، يعيش صحوته التي تتشكل فيها من جديد مسارات حياته الصحيحة ، وينظم مفاهيمه وأفعاله وأحلامه على وفق رؤية جديدة قائمة على الوعي بقدراته إنسانا في عالم محدود له بداية ونهاية .

قصائد الصحو

بعد أن أدرك إنسان الزوال في تجربة سامي مهدي خطأ حرصه على حياته المادية وأمله في درء الزوال عنها ، فقد أفضى به الأمر إلى تبين السبيل التي تحقق له خلوده المعنوي لا المادي الذي أخفق في بلوغه من قبل . وهذا ما سنستجليه في عالم الصحو الذي بلغه الشاعر في تجربته بعد أن انقضى شطرها الأول ، ذلك سيكون في قصائد الصحو ، وسيحان ١٩٨١، ورأيت ما رأيت ، أي فيما تبقى من قصائد الديوان.

لعل خير ما يمثل بدء حالة الصحو تلك قصيدة (صحوة) التي جاءت موحية ببدء جديد لحياة جديدة . إذ نجد تجديدا لحركة الزمان والمكان وكل ما يشتملان عليه بعد أن تكشفت الظلمة التي أغرقت الأشياء كلها في رقاد طويل . يقول:(٤٨)

صحوة

ظلمة تتكشف

والشارع المتثائب

يدفع عن كتفيه بقايا رقاد طويل

غير أن المنازل قد بدأت تتململ :

نافذة فتحت من هنا

وازدهت شرفة من هناك

ودبّ مع الضوء طيف جميل ..

برهة ثم تفتتن الأرض :

تبزغ حافلة

ثم أخرى

وأخرى

ويندفع الناس في كل منعطف وسبيل .

كل شيء في هذه القصيدة يتحول إلى حياة جديدة في ظل هذه الصحوة التي طردت الظلمة (الحياة السابقة) إذ يدب مع الضوء طيف جميل ، إنه السبيل الجديد الذي يجد فيه الإنسان نفسه ، وعليه يحقق حلمه من خلال حركته الواعية المتثبتة وقد تبين هدفه فاندفع إلى الحياة في كل منعطف وسبيل . ولكن المهم هنا في قراءتنا هذه هل الإنسان في قصائد الصحو وما بعدها لم يعد بحاجة إلى القلق ، أو لم يكن هناك ما يدعو إلى قلقه ؟ .

ذُكر في صدر هذا البحث أن شعور القلق أقرب ما يكون تجربة إنسانية شاملة ، وتوافره في النفس لم يكن عفوا بقدر ما يكون ضرورة تكامل نفسي تخدم أغراضا مهمة في حياة الإنسان؛ ومن الصعوبة أن نتصور خلو العالم الإنساني من القلق. والحقيقة أن قلق إنسان الصحو لم يتولد من غير الشعور بخطر الزوال ، ففي قصائد الصحو وما بعدها من قصائد الديوان نجد إظهارا وتشكلا للفعل الإنساني الواعي المجابه لهذا الخطر. وقد جاء الفعل الإنساني هذه المرة نتيجة قلق دافع ومحفز لاستثمار كل لحظة من الحياة في سبيل سعادة الإنسان لكي يحقق ما استطاع فردوسه المنشود . فالإنسان كما تظهره هذه القصائد (يبحث عن حياة ثرية لا يدع منها أي لحظة دون أن يتطوح بها ذات اليمين وذات الشمال ويستنفذها تجربة وتأملا ويصعد بها من الجزئي إلى الكلي ومن الحسي إلى الروحي ، ويصنع فردوسه الخاص . وبهذا يحقق ثراءه الروحي الذي بحث عنه جاهدا ولم يجده من قبل لا في طلب المتعة الحسية ولا في صور الإشراق الصوفي وهو يتعلق بالأخر المطلق طلبا للخلاص).[٤٩]

قلنا إن قصائد الديوان في مرحلة الصحوة هذه تكشف عن سبيل يتخذ فيه الفعل الإنساني المجابه للزوال حيزا كبيرا ومساحة واسعة حتى لتُطغي على أثر الزوال نفسه في تلك القصائد ؛ من غير أن نعدم وجودا للقلق الدافع للفعل الإنساني ذاك والمحرك الأول له ، ولكن في ظل وعي الإنسان بإمكاناته إنسانا ، وبالسبل التي تحقق لوجوده البقاء حتى بعد وفاته ورحيله عن هذا العالم المحدود . ويبقى نوع الفعل الذي يتحصن به الإنسان من خطر الزوال مرهون بالصورة التي يأتي عليها الزوال نفسه.[٥٠] وما دام الزوال قد تمظهر بصورة الحرب فقد كانت المعركة والتزام خط الدفاع هو السبيل الأمثل لمجابهته ودرء خطره . وهذا ما نجده في قصائد (سيحان ١٩٨١) ، و(رأيت ما رأيت) . ففي قصيدة (خيمة النار) نجد اهتداء الإنسان إلى المكان الذي تكون فيه مجابهة الزوال . وكان ذلك المكان هو قرية سيحان إحدى القرى الواقعة على شط العرب وقد بلغتها نيران الحرب بعد أن كانت جنة آمنة . يقول سامي مهدي :[٥١]

خيمة النار

خرج الشعر من ظلمة الروح

يبحث عن بقعة آمنة

فتقلب بين الحقيقة والوهم حتى الملال

فما هزّه غير خيمة نار بسيحان

آوى إليها

و أوتدها ، وهو دام ، بماسورة ساخنة .

وإذا أمكن أن نعد الشعر في هذه القصيدة معادلا موضوعيا للإنسان (الشاعر) بأحلامه وآلامه وآماله فإننا ندرك هنا كيف يخرج من سجنه الذاتي المظلم يتوخى بوعي بقعة آمنة ، وبوجود هذه البقعة تتحقق المعادلة الدلالية بين الشعر كونا خاصا وبين الأمان قاعدة أو ظرفا يحقق فيه الشعر وجوده . إذ يتحقق وجود الإنسان والإنسانية في آن واحدة .

إنه يتوخى بقعة آمنة يأوي إليها ، لذا كان عليه أن يحقق تلك البقعة بنفسه فلم يجد أمامه سبيلا إلى ذلك غير الدفاع عن سيحان التي امتدت يد الزوال إليها (الحرب) .

وفي قصيدة (الحكمة) يتجلى الفعل الإنساني في أبهى صوره وأعمقها دلالة وأكثرها ثباتا في مواجهة خطر الزوال ، وكان ذلك أيضا على أرض سيحان . إذ يقول الشاعر في هذه القصيدة :[٥٢]

(في بساتين سيحان شبّ العراق / نخيلا وماء / (.....) / في بساتين سيحانَ / كنا نعلّم أنفسنا كيف يمتزج الله بالناس / والناس بالطين / والطين بالحكمة الأزلية) .

إنه السبيل الذي يحقق الشاعر من خلاله الثراء الروحي ، إنه الفعل الباعث للخلود وتوطيد الإنسانية والسمو بها إلى المرتبة الإلهية . ويبقى مسار الصحو واحدا في قصيدة (رأيت ما رأيت) التي شارك فيها إيقاع الملحمة وفكرة الكورس أسلوبَ الشعر . وتجيء سيحان يمتزج فيها الأسطوري بالواقعي إذ تكونت تجربة الشاعر الغنية بالمواقف النفسية المتلونة بتلون الحالة الشعورية فيها . وما زلنا مع القلق والزوال والإنسان بينهما فنجد صورا معبرة في ثنايا هذه القصيدة تُظهر لنا قلق الإنسان وفعله إزاء الزوال في شعرية عالية من خلال مقاطع القصيدة . فبعد أن يقدم الشاعر وصفا للرجال الذين حلوا بسيحان (رمز الخلود) وكأن جلجامش توزع فيهم فتوجهوا ينشدون الخلود في سيحان (الجنة الآمنة) التي بحث عنها الإنسان في القسم الأكبر من تجربة الديوان. وبعد أن يصف مباهج سيحان وعذوبتها ، يستشعر الخطر المحدق بها فيدعو أولئك الرجال للتأهب لدفع الخطر عنها :[٥٣]

سيحان عذراء يا رجال

زارا يشتهيها

وزارا يريدها أمة في هيكله !

ولكنها من دون أن تشعر بالخطر تمضي بدعوة أولئك الرجال إلى نعيمها والتلذذ بأطايبها . وبأسلوب الحوار يستجلي الشاعر خطر الزوال ويُظهر قلقه إزاء ذلك الخطر الذي يعدو حثيثا ليلتهم سيحان ويحرم الإنسان من جنته تلك . :

(ما لهذا جئنا يا صبية .. / ما لهذا جئنا . / رأينا ثيران زارا ففزعنا . / زارا مخلوق طردته الآلهة / وأنكرته عشتار / (...) / وأنت بخوخك ورمانك / ونداك وأطيابك / تهيجين غرائزه فيشتهيك / ويريدك أمة في هيكله .).

وهنا يبدو القلق واضحا بعد استشعار الخطر الذي يدنو من سيحان ، وهذا القلق هو قلق دافع لاتخاذ موقف فاعل يتمثل بالتصدي للزوال . وهنا يرسم الإنسان لنفسه سبيل الخلاص الحقيقي الذي ينتهي بخلوده وتمجيد فعله . ولهذا نجد الشاعر يدعو رفاقه ليلتحقوا في سبيل المجد ودفع خطر الزوال عن سيحان وهم في صحوة من أمرهم :

هذه سيحان يا رفاق
وهذا ميعادنا
وهنا العشبة التي نريد
فلنمسح بنداها الأجساد
ولنطلق في جناتنها الأرواح .
(.....)
ولنبدأ ..
نبدأ الزمان من أوله
نبدأ من دلمون
ولننفذ معا في شمس الغد .
الخيط رفيع يا رفاق
والموت معنى من معاني الحياة .
الموت نهاية شكل
والحياة تجدده .

إنها دعوة إلى نبذ أسلوب الأمل القديم والوقوف عند الأحلام والمنى فقط ، إنها دعوة لافتراع طريق جديد ، بداية جديدة يقترن فيها الحلم بالعمل ليتحقق دونما انتظار . لقد صار باستطاعة إنسان الصحو أن يصنع أحلامه ويحققها بنفسه دون أن يضع خوف الموت نصب عينيه ، لأن الموت بحد ذاته صار حياة ومعنى من معاني الحياة (الشهادة) .

وهكذا يبدأ الصراع مع الزوال (زارا) الذي يتبدى في هيأة خنزير بري ، ويزداد القلق الفاعل الذي يدفع الإنسان إلى أن يكمل حياته ويصنع فردوسه بنفسه، ويحتدم الصراع مع هذا الخنزير ، وما أن ينتهي الصراع بموت الخنزير ينهمر المطر ليغسل أدران الأرض ويطهرها :(٥٤)

(مطر .. مطر / أين الخنزير / مطر .. مطر / سقط الخنزير / مطر .. مطر / مات الخنزير)

ومن ثم تبدأ الحياة من جديد بعد عودة سيحان آمنة مطمئنة ، (سيحان) المكـــان الـــذي حقـــق الإنسان فيه وجوده وخلوده بنفسه إذ بلغ مراده :

وشقت البذور جلد الأرض

وعاد بالعُشبة جلجامش والفتيان

واكتملت كما اشتهيت ، دورة الزمان

وأعلن الربيع

بشارة الولادة الجديدة

سيحان

يا سيحان

هذا أوان ما انتظرت منذ سالف الأوان .

إنها النهاية التي طالما بحث عنها الإنسان في رحلته مع الزوال ، لكنه بلغها بعد أن عرف سبيل خلاصه الصحيح الذي كان عليه أن يسلكه في مواجهة الزوال إبقاء لديمومة حياته إنـــسانا ، وتحقيقـــا لثرائه الروحي لا المادي . وهكذا تكتمل تجربة الشاعر في هذا الديوان في رحلته مع الزوال والقلق ، وفي تتبعه مظاهره ومحاولات دفعه ، لينتظم الديوان كله في تجربة شعرية واحدة متكام

<u>هوامش البحث :</u>

(١ ، ٢) ينظر لسان العرب ، والمعجم الوسيط : مادة (قلق).

(٣) النفس ، انفعالاتها وأمراضها وعلاجها : ص (١٦١).

(٤) ينظر : نقد الشعر في المنظور النفسي : ص (٦٨).

(٥) ينظر : النفس انفعالاتها وأمراضها وعلاجها : ص (١٦١).

(٦) دراسة نفسية لشخصية المتنبي من خلال شعره (بحث) : ص (٢١٤).

(٧) نقد الشعر في المنظور النفسي : ص (٨٦).

(٨) الاستهلال ، فن البدايات في النص الأدبي : ص (١٥).

(٩) ديوان الزوال : ص (٥).

(١٠) ديوان الزوال: ص (٩).والمجموعة الشعرية : ص (٢٣٨).

(١١) ديوان الزوال: ص (١٤).والمجموعة الشعرية : ص (٢٤٢).

(١٢) ينظر قصيدة : (المارة) : ديوان الزوال : ص (٣٥) ؛ فهي تؤكد غفلة الناس عـــن مـــوتهم المزروع في أنفسهم دون أن يلتفتوا إليه إذ يتفون أشياء عرضية يهتمون بها.

(١٣) المنزلات : ج١ منزلة الحائة : ص (٢٥٥).

(١٤) الشاعر وعصره رؤية خاصة : ص(٤٣).

(١٥) ديوان الزوال :ص (٣٧)، والمجموعة الشعرية : ص(٢٦٣).

(١٦) الزمن في شعر سامي مهدي (رسالة ماجستير) :ص(٤٣).

(١٧) ينظر : كتاب المنزلات : ص(٢٥٠).

(١٨) الشاعر وعصره رؤية خاصة :ص(٤٧).

(١٩) السابق نفسه : ص(٤٧).

(٢٠) في حداثة النص الشعري : ص(١٧٨- ١٧٩) .

(٢١) ديوان الزوال :ص(٣٩) ، والمجموعة الشعرية : ص(٢٦٥) .

(٢٢) أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي : ص(١٧٥).

(٢٣) ديوان الزوال : ص(١٣) ، والمجموعة الشعرية : ص(٢٤١).

(٢٤) السابقين نفسيهما : ص(٤٢-٤٣)، وص(٢٦٧).

(٢٥) في حداثة النص الشعري : ص(١٧٧).

(٢٦) الشاعر وعصره رؤية خاصة : ص(٤٣).

(٢٧) ديوان الزوال : ص(١٦)، والمجموعة الشعرية: ص(٢٤٤).

(٢٨) ديوان الزوال : ص(٤٥) .

(٢٩) ينظر : المنزلات ، الحداثة : ص(٢٥٢).

(٣٠ ، ٣١) الشاعر وعصره رؤية خاصة : ص(٤٧).

(٣٢) المنزلات ، الحداثة : ص(٢٥٢).

(٣٣،٣٤) ديوان الزوال : ص(٤٧).

(٣٥) السابق نفسه : ص(٥٣) .

(٣٦) المنزلات ، الحداثة : ص(٢٦٣).

(٣٧) ديوان الزوال : ص(٥٧)، والمجموعة الشعرية : ص(٢٨٠).

(٣٨) الشاعر وعصره .. : ص(٤٣).

(٣٩) ديوان الزوال :ص(٥٩).

(٤٠) الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري : ص(٣٩).

(٤١) ينظر : الزوال وفلسفة المنظور الخاص في إسقاطاته على الأشياء والكائنات ،(بحث) : ص(٢٤).

(٤٢) ديوان الزوال : ص(٦٢).

(٤٣) ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي : ص(٥٧).

(٤٤) ديوان الزوال : ص(٦٥) ، والمجموعة الشعرية : ص(٢٨٦).

(٤٥) مقدمة في أدب العراق القديم : ص(٨٨).

(٤٦) ديوان الزوال : ص(٦٧).

(٤٧) نفسه : ص(٧١) .

(٤٨) نفسه : ص (٧٩).

(٤٩) ينظر : الشاعر وعصره رؤية خاصة : ص(٤٧).

(٥٠) كمثال على ذلك ينظر : قصيد (الجواد) في ديوان الزوال : ص(٧٥).

(٥١) ديوان الزوال : ص(٩١).

(٥٢) نفسه : ص(٩٢ – ٩٣).

(٥٣) نفسه أيضا : ص(١٠٤).

(٥٤) نفسه : ص(١٢٤).

مصادر البحث :

١- الاستهلال ، فن البدايات في النص الأدبي ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ــ ١٩٩٣.

٢- أسلوبية البناء الشعري ، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي ، أرشد علي محمد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ــ ١٩٩٩.

٣- دراسة نفسية لشخصية المتنبي من خلال شعره ، د. عبد علي الجسماني ، وعبد الخالق نجم (بحث) مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد(٣٧) ، ١٩٩٠ .

٤- الزمن في شعر سامي مهدي ، عبد الرحمن عبد الله ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة البصرة ، ٢٠٠١ .

٥- الزوال ، سامي مهدي ، (ديوان) ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١.

٦- الزوال وفلسفة المنظور الخاص في إسقاطاته على الأشياء والكائنات ،علاء الدين محمد علي ، مجلة الطليعة الأدبية ، العدد (١٠) لسنة ١٩٨٦.

٧- الشاعر وعصره رؤية خاصة ، سامي مهدي ، مجلة آفاق عربية ، العدد (١١) السنة العاشرة ، ت٢/١٩٨٥.

٨- الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري ، د. علي البطل ، دار الأندلس ، ط٢ – ١٩٨١.

٩- ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي ، أحمد الخليل ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٩.

١٠- في حداثة النص الشعري ، د. علي جعفر العلاق ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٠.

١١- لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر .

١٢- المجموعة الشعرية : ١٩٦٥ – ١٩٨٥ ، سامي مهدي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٥.

١٣- المعجم الوسيط ، الفيروز آبادي، المكتبة العلمية ، طهران ، د، ت.

١٤- مقدمة في أدب العراق القديم ، طه باقر ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٦.

١٥- المنزلات ، ج١ منزلة الحداثة ، طراد الكبيسي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٢.

١٦- النفس ، انفعالاتها وأمراضها وعلاجها ، د. كمال علي . دار واسط ، ط٤-١٩٨٨.

١٧- نقد الشعر في المنظور النفسي ، د. إبراهيم ريكان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩.

Evanescence and Man's Worry: A Trip and Revelation/ A Reading of the *Divan of Evanescence* to Sami Mehdi

Abstract:

The poems of *The Divan of Evanescence* represent a unified poetic experience through which the poet seems following the idea of evanescence and its manifestations in man and his surroundings. This is accompanied by emotional, psychological and intellectual situations which influence on man and decide his particular way of dealing with evanescence, his awareness of it and his search for a liberation from its burden. This experience has passed through three stages.

In the first stage there is a follow-up to the manifestations of evanescence which pervade the world. This stage is represented by *Poems of Evanescence* and *Poems of Cities* in which the poet shows his deep suffering for the deconstruction of relations among things and of his relations with those around him. In these poems, man of evanescence seems weak and disappointed before imminent transience, finding only fear, worry, loss of dreams and departure of dear ones. Therefore, he is left in a state of psychological instability, and is possessed with insecurity and forlornness. This state will push him towards calling back the past and apprehending the welfare of ancestors. It is a state of emotional regression resulting from a human psychological state of spiritual and existential banishment. *Sumerian Slates* poems are a witness to this stage.

The second stage is one of revelation. It comes at the end of *The Poems of Ancestors*. In these poems, man of transience witnesses his failure in confronting or getting rid of that fearful giant(evanescence). He realizes that his mistake is not in his search for salvation, but in not thinking of it. Man has been able here to admit his own evanescence and separate the limited world of physical man from the eternal world. Hence he begins to look for other ways of dealing with evanescence; his negative worry has also changed to an incentive worry to seize the opportunity and immortalize himself. Thus he confronts evanescence through his deeds, not through false wishes.

In the third stage, man becomes fully conscious of his confrontation with evanescence. He invests his fear and worry to achieve what he wants and rebuild his life. Poems like *Wakefulness*, *Seihan* and *I saw what I Saw* represent this stage. They summarize the poet's experience and his awareness of his own destiny. This stage reveals man's ways of confronting evanescence; such ways dominate the effects of evanescence. This state has not been seen in *Poems of Evanescence* and *Poems of Cities*.

All the poems of the Divan assimilate the poetic experience of evanescence. They are full of psychological, emotional and intellectual situations. They portrait man's worry and reaction to evanescence in a high poetical ness.